إضاءة

من يتذكر الآن رواية «هُوارية»؟ يتذكرها فقط من قراها ومن احصى الخسائر متأسفاً على وقوع إصابات جانبية بسبب كثافة الغبار الذي ثار تحت أرجل جموع هائلة لم ولن تقرأ. انتهى مهرجان اللغط الذي بنته الجموع الافتراضية على خدش الحياء الخاص بمدينة وهران

محمد هديب

لو حسبنا كم استخدمت الصحافة عبارات إثارة اللغط، والضجة، والجدل، والغضب لدى إشهار عملية إبداعية عربية من كتابة، وسينما، ومسرح، وفنون تشكيلية، وأغان، لصار عندنا كومة ذهب محتملة وكومة غبار. الذهب ليس مضموناً. قد يتحقق عياناً أمام صاحب الشأن المستهدف (بفتح الدال وكسرها) كل هذه الإثارات، وقد يكون خلبياً، كما تعد البروق الكاذبة بالمطر. المضمون في كل الأحوال هو الغبار، سواء أكان تثويره بقصد أو بربع قصد من صاحب العمل. هناك كتاب وفنانون يشتغلون في جنوب المتوسط وعيونهم على الشمال، فلماذا لا يتغبرون ويتعفرون استناداً إلى «لعل»، هذا الحرف المشبه بالفعل الذي يسحبنا من رموشنا متربّين وآملين؟ وهناك غبار خارجي قد يكون كبيراً من أصحاب الكار نفسه، أو بفعل تراكم الغوغاء الذين يحسبون كم سيضيع عليهم من «لايكات» إذا ما غابوا يوماً أو يومين وهم يقرأون صفحات كثيرة. ولقد كان الزمن السابق متأملاً أكثر، والجدل مؤطراً بين السلطات المعرفية والسياسية والمنتديات والصالونات، وكان على الجمهور أن يقطع الشوارع، ليشتري الكتاب أو يعاين فيزيائياً العمل الفني.

غبار الأسبوع

اليوم، فإن وسائل التواصل الاجتماعي جعلت الملايين يشاركون بضرارة في إثارة الغبار الذي سيلوث الجو وسيهدأ بعد أسبوع. فالغبار له أوقات عمل رسمي ينتهي مع عطلة الأسبوع في الغالب الأعم من هذه الحوادث. بعض الاستثناءات قد تحمل أكلافاً مؤسفة، من اعتداء جسدي أو حبس، أما المنع فهو المجال الجديد الذي يوفر قرصنة مربحة لبعض من أثاروا الغبار كي يحصلوا على المادة الإبداعية. والكثيرون منهم قد لا يعنيهم الأمر، لأن طبيعة وسائل التواصل مثل السوق الفورية تبيع أي غبار لأي عابر السبيل. كثيراً ما سمعنا عبارة «مع أنني لم أقرأ هذه الرواية ولكن..»، هذا تل غباري يعتدي على التهريج، التهريج الذي نحترمه لأنه ظريف ويسعد الناس.

الآن، من منا يتذكر رواية «هُوارية» للكاتبة الجزائرية إنعام بيّوض؟ يتذكرها فقط من قراها ومن أحصى الخسائر متأسفاً على وقوع إصابات جانبية بسبب كثافة الغبار الذي ثار تحت أرجل جموع هائلة لم ولن تقرأ. انتهى مهرجان اللغط الذي بنته الجموع الافتراضية على خدش الحياء الخاص بمدينة وهران، والتعبيرات الجنسية والسوقية التي وقعت في هذه المدينة بالاسم حيا لحي وشارعاً لشارع.

خلاقة المقدس والمدنس

ولكل منا أن يتخيل أي مدينة عربية يمكن أن تضم هذه الفئات المشوّهة أرواحها والجميلة جمال الشياطين والبشر والضحايا والحالمين المكسورين والمستغلين الشيقين. ثمة امرأة تمتهن الدعارة في مدينة ما، يزورها زبائن ما في زمن ما. هذه وصفة آمنة حين تقرأها بالعربية الفصحى، أو غير مستعدية لقبلة بعينها. إياك أن تستعمل لهجة محلية. بينما تفعل ذلك تستمع في الجوار إلى أغنية من طراز «الواي واي» تمجد نوعاً من المخدرات، إذا رقنتها بأصابعك تحولت إلى كلمة، والكلمة هي خلاقة المقدس والمدنس وهي التي تبتّ في المصائر وتوقع عليها. لقد وضعنا الغبار أمام سؤال عن المدينة، أي مدينة إذ يتوافر فيها قاع، ويمكن أن تدور فيها الحكايات.

في رواية «حيث لا تسقط الأمطار» للشاعر الأردني أمجد ناصر (1955 - 2019)، لا توجد أمكنة مسماة باسمها، بل استعارات مثل المدينة الرمادية ومدينة السندباد. فكرتُ وأنا أقراها ما الداعي لهذه الاستعارات؟ والجواب في نهاية الأمر: هذا خيار الكاتب وهو حر. وليس دائماً احتراس الكاتب رقابياً، بل ربما لعبة فنية حتى تخرج الرواية من شبهة السيرة الذاتية. لذا فالعهدة على الكاتب والقراءة للقارئ.

لو سحبنا شخوص وهران إلى المدينة الرمادية لن يكون هناك أي ضير بسببه الاسم. حتى لو جرى التخمين فهو بلا أي تبعة قانونية أو عرفية، إلا للمتمحكين مضمري النيات. يشبه إخفاء اسم المكان وتعمية لغته ما عشناه في ثقافتنا المدرسية، خصوصاً في المرحلة الإعدادية التي تبشر بأوائل البلوغ. فاسم الأم كان من ضمن مستلزمات الشرف الوجودي. إذا فاجأ ولد آخر بقوله: عرفت اسم أمك فهو كمن وضع قنفذاً على جلده الحساس.

الخسارة

والحال أن الخسارة العميقة تتمثل في المناخ العام الذي تتاكل فيه القدرة على الكتابة، تحت أنظمة تضبط معايير التعبير بوصفها السلطة السياسية المحتكرة للقوة، أو تترك مساحات للعنف التعبيري دفاعاً عن الشرف المجتمعي، وهو رمز أنثوي يتلبس المدينة ذات الطبقات المتصارعة. تتحول المدينة إلى حياض يذاد عنها بالسيف، وفي الجملة هي صفقة موغلة في العمق التاريخي ومتعاضدة بين السلطة والعرف.

فإذا صحت نسبة عبارة «كل الحرية المتاحة في العالم العربي لا تكفي كاتباً واحداً» إلى القاص والروائي المصري يوسف إدريس (1927 - 1991)، فإن الأعمال التي تثير اللغط وما شاكل تصبح في أحد وجوهها وسيلة هجومية مغايرة لإثبات الذات الروائية. ولكنها قد لا تكون هجوماً على آخرين، بل على ذاتها التي تتستر وتتنكشف. منذ التسعينيات وضمن ما درسه أستاذ الأدب المقارن المصري صبري حافظ بعنوان «جماليات الأفق المسدود»، باتت «ثمة حاجة إلى نزعة جديدة هي نزعة الرفض المتمردية التي يؤكد عبرها الخاص رفضه للعام، أو يعلن عبرها على الأقل عدم إذعانه له، ورفضه للوقوع تحت سلطانه». يعود بنا الناقد إلى المرحلة التي اندلعت فيها الكتابة الروائية محدقة في الذات الفردية بعد يأسها المطلق أمام الأفق المسدود. هذه كانت المرحلة التي تتساوق مع ما يعرف في الجزائر بالعشرية الدامية. رواية «هُوارية» عنيفة، لأن الكاتبة اختارت مرحلة تسبق العشرية وتتبعها لتظل البؤرة هي عقد التسعينيات، دون أن يكون فيها تتابع روائي زمني من البداية حتى النهاية، بل من خلال بورتريهات تسيل من جوانبها الصور والمشاعر والتحولات. كل واحد إما يتحدث عن نفسه أو يتحدث عن غيره. وفي جميعها الكاتبة واحدة تكتب بالمستوى اللغوي ذاته دون أن تعبأ بضرورة التنوع المفترض في مستويات السرد بين شبه الأمي وقارئ الفلسفة.

كاتب شبح

ولكن بدت اللعبة مقبولة عندي، فقد توزعت الحصص السردية من الناس إلى يد الكاتبة كأنها تمارس وظيفة ما يسمى «الكاتب الشبح»، تكتب بناء على طلب الساردين الذين تظهر أسماؤهم علامات مفتاحية، تعطي الإذن لها أن تخلق كل شيء، الشخص ومكانه وزمانه ومصيره. كان خيار الكاتبة أن تصادت مع هذه العشرية الحرجة، وإن كانت واضحة في انحيازها إلى رواية السلطة التي تحدد من خرج على الدولة فوصم بالإرهاب، إلا أن رواياتها دخلت أحشاء المدينة، ووزعت الأحلام والهزائم على الجميع. بدت اللغة ملمحاً بارزاً في الرواية. أعني بذلك المعجم الخاص بها، وهو معجم غني لا يعطي بالتأكيد ضمانة روائية ذات سوية عالية، إلا أنه هنا حيوي ونابض، رغم حضور أخطاء إملائية ونحوية صارت ضمن الفلكلور العربي المعتاد، حتى أن واحدنا إذا عثر على كتابة خالية من الأخطاء انتابه الشك والقلق. وأعني كذلك تقديمها مثلاً للعبارة المتخففة من الشحوم الزائدة، وقدرتها على الوصف الخاص الذي لا تعثر فيه على كليشيهات معادة، وتتكرر بما لا تخطئه العين في الأعمال الروائية الجديدة. بالطبع، إن كل عمل يمكن أن تلاحقه أحكام ما ينبغي ولا ينبغي. وما بين «جماليات الأفق المسدود» وامتعاض الناقد الفلسطيني إبراهيم أبو هشهش من أن الرواية العربية صارت «رواية هموم نفسية واجتماعية أو سياسية في الغالب تعيش في الغرف والمقاهي والشوارع، وتكاد تكون منبتة انبتاتاً تاماً عن محيطها الطبيعي»، يبدو أن هذا المخاض سيتواصل إلى أمد أطول نعوّل فيه على استثناءات قليلة تدرك المأزق ولا تذعن له. وبصرف النظر عن أسبوع الغبار، فإن الضحية الأولى هي قارئ دار «ميم» للنشر، إذ لم تحتمل الناشرة الكاتبة آسيا علي موسى هذا الضجيج فاقفلتها، وتركت «الجمل بما حمل» بحسب بيانها الأول والأخير. كان هذا أسوأ ما وقع، إذ أخرج الفوغائية من صفتها الفرجوية إلى إثبات الوجود قولاً وفعلاً. مما درجنا على سماعه إذاعياً وتلفزيونياً «فاصل ونواصل»، يبقى ملف إثارة أو ثوران اللغط والجدل وأمثالهما ملفاً غير ملتفت إليه بشكل جدي يفصل الحنطة الروائية عن الزؤان. فقصتنا من أولها تقوم بنية حسنة على أن العمل الروائي ليس له إلا أن يكون مختلفاً، ومنتمياً لروحه، وأذى من يبرز أي انحيازات دعائية، وبانياً لعمارته الواقعية والخيالية من ذاته الفردية والجماعية. وفي هذا كله، وبعد أن تشطب كل ما سبق وتضيف من عندك إلى ما لا نهاية، يبقى أي عمل شهادة على صاحبه إن كان نصه قادراً على المشي بكرامة إبداعية، أم يحتاج إلى تسوّل الزوابع.

أحد أبواب ساحة وهران لمصارعة الثيران التي تعود إلى عام 1906 (Getty)

الخسارة تتمثل في مناخ عام تتآكل فيه القدرة على الكتابة

مما درجنا على سماعه إذاعياً وتلفزيونياً «فاصل ونواصل»

إلى أمد أطول

قد يكون أسوأ ما حدث في أسبوع الغبار، هو أن الضحية الأولى كانت قارئ دار «ميم» للنشر، إذ لم تحتمل الناشرة الكاتبة آسيا علي موسى هذا الضجيج فاقفلتها، وتركت «الجمل بما حمل» بحسب بيانها الأول والأخير. وفي زمن تتحول فيه الرواية العربية إلى رواية هموم نفسية واجتماعية أو سياسية تميل في الغرف والمقاهي والشوارع، يبدو أن هذا المخاض سيتواصل إلى أمد أطول نعوّل فيه على استثناءات قليلة تدرك المأزق ولا تذعن له.

مواسم اللغط الروائي

كرامة إبداعية وتسوّل الغبار

قصيدة

على موعدٍ ليس نخلفُهُ
الخلاص

عبد الوهاب أبو زيد

ألا تسهرون معاً تحتَ ضوءِ القمرْ
أم ترى أنكم لا تنامون إلّا على
وَقْعِ صوتِ الرصاص إذا ما انهمرْ
صَاخباً وغزيراً كرشقِ المطرْ
ألا ترقصون؟
ألا تدبكون؟
أم ترى أنكم ميتون؟
الستم، إذن، مثلنا
مثل كلِّ البشرْ؟
تضحكون وتبكون أم أنّ نبعَ الدموعْ
جفَّ في كلِّ هذي العيونْ
العيونِ التي ليس تظما وليست تجوعْ
سوى للشهادةِ فوق ترابِ الوطنْ
وهي مَتروكةٌ للكلابْ
لتنهشها دون أن تستطيعوا
صدَّ أنيابها وهي مغروسةٌ في الجسدْ
أيها العاشقون لهذا الترابِ وهذا البلدْ
من سيجمعُ أشلاءكم
وهي تَشخبُ بالدمِ؟ من سوف يحملُ
هذي الجثثْ
إلى القبرِ؟ (أعني الذي لم يزلْ باقياً بعدُ
منها)؟
من سيكتب آخرَ فصلٍ بمأساتكم؟
من سيوقفُ هذا العبثْ؟
أيها الراضعون حليبَ الغضبْ
أيها الدافعون بكل الذي تملكون الثمنْ
أيها الذاهبون إلى ربكم باسمينْ
معَ مَنْ ذهبْ

ألم تسأموا من بياض الكفنْ؟
ألم تياسوا من رجوع الوطنْ
رجوعِ الحبيبِ لحضن الحبيبْ؟
أيها الصارخونَ ولا من معينْ
ولا من نصيرٍ ولا من مُجيبْ
كم شهيدٍ بعرس الشهادةِ سوف يُزَفُّ
وكم قطرةٍ من دمٍ لا يجفّ
على رايةٍ يتناقلها الشهداءُ بمضمارِ
موتٍ
يسابقُ فيه الشهيدُ الشهيدْ!
وكم تحملون إلى ردهاتِ السماءِ
البريدْ!
كم سيحصدكم موتكم مثل حبِّ
الحصيدْ
ثم يصرخُ: هل من مزيدْ؟

ألا تخلدون قليلاً إلى النومِ
أم أنّ ما كان يُدعى البيوتْ
أصبحتْ دون سقفٍ
وخرَّتْ على الأرضِ جدرانُها
أتراها، إذن، مثلكم هي أيضاً تموتْ
أيضيعُ كما ضاعتِ الأرضُ عنوانُها؟
ألا تنهضون من النوم فجراً
ألا تذهبون إلى البحرِ عصراً
ألستم تعدُّون أمواجَه وهي تترى
على شاطئ البحرِ واحدةً إثرَ أخرى؟
ألا ترسلون النظرْ
بعيداً برزقته وهي تدنو وتنأى
مثل من تشربُ الماءَ والكأسُ ظمأى
مثل من لم تزل تترقّبُ عودةَ فارسها
المنتظرْ؟
البرتقالْ
من غصون الشجرْ؟
ألا تذهبون معاً للحدائق حيث الطبيعةُ
تختالُ ألوانُها؟
أيها الطارقون براحاتكم فوق باب
القيامةِ حتى تقومْ
ستموتون في أرضكم
لا مناصْ!
ثم منها يكون النشورْ
حين يُبعثُ من في القبورْ
ويحين الخلاصْ

أيها الفائزونْ
كائناً ما يكونْ
فلتصيحوا معاً:
إننا راجعونْ!
إننا هاهنا
أبداً ثابتونْ
إننا مَنْ إلى
ربّهم يذهبونْ
دون أن ننحني
أبداً أو نهونْ

ولتقولوا معاً:
إننا رغم كل سنين التشرد والفقد
والابتعادْ
رغم كلّ الذي مرّ من عمرنا في حدادْ
رغم كل الذي ضاع من كلّ شبرٍ بهذي
البلادْ
إنّنا والترابِ على موعدٍ ليس نخلفُهُ:
أن نعود وأن يُستعادْ!

(شاعر من السعودية)

طفلة فلسطينية هربت مع عائلتها من قصف الاحتلال الإسرائيلي على دير البلح، 3 آب/ أغسطس، 2024 (Getty)

مشهد

من يقدر أن يكون أوليس في زمننا؟

حوريات التكنولوجيا

«أوليس والحوريات» للفنان البريطاني جون وليام ووترهاوس

وُلد الإنسان بضوء خاص، نور فريد لا يتكرّر في أي إنسان آخر، وهذا ما يعكس النور الأول للعالَم. مهمة الإنسان الأولى هي أن يتعلّم كيف يشعر به

جعفر العلوني

ما هذا الذي يحدث؟ أيّ عالَم هو هذا الذي نعيش فيه؟ عواصف الحيرة والضياع والارتباك تقتلع كلّ شيء، تعصف بقوّة متزايدة، وأغاني الحوريات الجديدة، حوريات التكنولوجيا الذكيّة، تصدح عالياً وتهدّد بالهذيان. في أوديسة هوميروس، إحدى الملاحم المؤسِّسة للثقافة الغربية، يعبُر أوليس مع طاقمه في شرك «عرائس البحر»؛ تلك المخلوقات التي تغنّي بصوت مُغرٍ إلى درجة أنّها تدفع من يسمعها إلى التخلّي عن كلّ شيء والبقاء معهنّ بقيّة العمر. صوت الحوريات مُغرٍ وجميل بشكل لا يُحتمل، والاستماع إليهنّ يعني أن تتحطّم السفينة، وبالتالي الضياع إلى الأبد. لتجنّب ذلك، يغطّي البحّارة آذانهم بالشمع. أمّا أوليس، فلا يفعل ذلك، لأنّه يريد أن يسمعهنّ. وكي لا يضيع، يطلب من طاقمه أن يربطه بسارية السفينة حتى لا ينجرّ نحو الهلاك. اليوم تغنّي حوريات التكنولوجيا الجديدة عالمياً، والجميع يريد أن يسمع صوتهنّ دون أن يربط نفسه بأيّ سارية، راكضاً نحو الضياع. إنّه الصوتُ المتجسّد بالواقع الافتراضي وخوادم القوّة السيبرانية: مراكز البيانات المزوّدة بأجهزة حواسب قوية جدّاً، ومتطوّرة بشكل لا يوصف، في مرافق هائلة ومخفية نسبياً، حيث تُسجَّل معلومات كلّ إنسان متّصل على الإنترنت، ليل نهار، في أيّ وقت، ومن أيّ مكان، ومهما كان الجهاز الذي يتّصل منه، حيث تقوم هذه «السيرفرات» بحفظ بياناته المرتبطة في أرشيفات ضخمة وخاصّة بكلّ واحد منّا. ما زالت حوريات الأوديسة الجديدة تُغنّي، وهي في شكلها اللاإنساني اليوم، أي الرقمي، أكثر خطورةً وإغراءً منه في شكلها الإنساني الجميل الذي جاءت عليه في الملحمة اليونانية. وفي عصرنا الراهن، عصر التقدّم التكنولوجي، حيث كلّ شيء يبدو افتراضياً، حتّى الواقع نفسه، صار القسم الأكبر من البشر «أوتومانات» متحرّكة: آليات ذاتية التشغيل على غرار الروبوتات. وبينما صارت مرحلة آنسنة الروبوتات وراء ظهرنا، تتسارع الخطى الآن نحو تحويل من تبقّى من البشر إلى روبوتات. أيّها البحّار، إنّ الصوت الأوّل الذي يجب أن تستمع إليه هو ذلك الموجود في أعماقك، صوت الشرر الداخلي، ضوء الوعي الذي تحاول حوريات التكنولوجيا إخماده كل يوم. وُلد الإنسان بضوء خاص، نور فريد لا يتكرّر في أي إنسان آخر، وهذا ما يعكس النور الأوّل للعالَم. إنّ مهمّة الإنسان الأولى على الكوكب هي أن يتعلّم كيف يشعر به، ويحسّه ويدرّب نفسه على سماعه، ليس بأذني الجسد، بل بأذني القلب والروح. بالمقابل، فإنّ السماع لصوت الحوريات تلك يعني التشويش على الصوت الداخلي الخاصّ بكل إنسان، واقتلاع القدرة على الوعي والتفكير بحرية ووضوح.

في طقس تهيّأ فيه العواصف من كلّ صوب، وتنعدم فيه الرؤية بسبب الضباب، لن تسعف الإنسان - البحّار أيّة بوصلة إلّا تلك الموجودة في أعماقه. من درّب نفسه على الإحساس بصَوته الخاص، ورؤيته، سينجو، ومن لم يفعل، ستأخذه الحوريات إلى أعماقها الآلية، أعماق العبث وعدم اليقين. هذا الضوء الموجود في داخل كلّ واحد منّا هو السارية الوحيدة التي يمكن أن نتشبّث بها، كما فعل أوليس، وسط غناء الحوريات وعواصف الضياع والارتباك. فمن يقدر أن يكون أوليس في زمننا هذا؟

في عصر التكنولوجيا صار القسم الأكبر من البشر «أوتومانات» متحرّكة

فعاليات

تعرض «مكتبة الإسكندرية» في مدينة الإسكندرية عند الثانية من بعد ظهر الأربعاء المقبل، فيلمَيْ **مسجد احمد بن طولون** الذي يوثّق المسجد الذي شُيّد في القرن التاسع الميلادي في حيّ السيدة زينب القاهري، و«الحضارة العربية (العمارة المدنية)» الذي يستعرض نماذج للعمارة الإسلامية في عدد من المدن.

ابتداءً من الرابع عشر من الشهر الجاري، تعرض منصّة افلامنا فيلم **آخر واحد فينا** (2016) للمخرج التونسي **علاء الدين سليم**. يتناول الشريط (ساعة و34 دقيقة) قصة شاب من جنوب الصحراء الكبرى، يصل إلى شمال افريقيا، ليجد نفسه وحيداً في تونس، محاولاً الهرب إلى اوروبا. يقرّر عبور البحر بمفرده، ويبدأ رحلة بحثه عن حلمه على متن قارب صغير.

ضمن فعاليات الدورة السابعة والثلاثين من «المهرجان الدولي للموسيقى السمفونية» في مدينة الجم التونسية، يقام عند التاسعة والنصف من مساء السبت المقبل حفل لـ **مشروع منصف جنود**. يشارك في الفعالية العازفون: **ستيفانو ساكو** (ساكسفون)، و**تيموثي فيرديسكا** (باس)، و**مالك الاخوة** (بانو)، و**منصف جنود** (بيانو).

تنظّم «مكتبة قطر الوطنية» في الدوحة، عند الرابعة والنصف من عصر الأربعاء المُقبل، ورشة **فن الدودل**. تضيء الورشة اساسيات الدودل، الذي ظهر فنّاً عشوائياً في القرن السابع عشر، ثم تطوّرت أنماطه وأساليبه وأدواته التي تعتمد على تحويل الأشكال البسيطة إلى أعمال فنية تجريدية أو تشخيصية.

ثقافة

تخصّص «العربي الجديد» صفحة «نصوص الحياة والحرب من غزّة» لشعراء وروائيين ومسرحيين وفنانين من قطاع غزة، كي يعبّروا عن تفاصيل الحياة اليومية تحت القصف الإسرائيلي. هي نصوص تقول الحياة والإنسان من قلب الموت

نصوص الحياة والحرب من غزّة

محمود عبد المجيد عساف كاتب

وسائدُ الفُتور

نَحنُ الرصاصُ الموهوب، ناهبو سُفنِ الأبجدية، المُحتضَرونَ في الملاجئ، مُعتنقو الحُرية، الّذينَ يجهلونَ مزايا الخُنوع، نَحنُ البكاءُ الذي يَركضُ في الشوارع، المُشعوذونَ العاجزونَ عن استحضارِ حكاياتِ الضّعف. نَحنُ المُعلّقةُ أفئدتُهم بالأماكنِ والمساكن، المُخزنةِ عقولُهم بالأسماءِ والصّور، المحتفظونَ بالذّكرى والذّكريات، نَحنُ مجانينُ غزّةَ المتيمونَ بها، الّذينَ يَميلونَ إلى كلّ ما يُوصلُنا إليها؛ غزّةَ المبطنة بحرير السّلام. نُسافرُ مع ما لدينا مِن حنينٍ لماضٍ خُطِفَ منّا رغمَ بقائه، لنا سماؤُنا التي فرشناها أحلاماً وورود بلا رائحةٍ تطيرُ في دهاليزِ الأحزانِ الشّرقية، لنا أرضُنا الّتي خلدنا فيها ما أهداهُ اللهُ لنا مِن أيامٍ نَعيشُ فيها حتّى اللّحظة رغمَ صدورِ حُكمِ الإبادةِ بحقنا.

نَحنُ المُنهكةُ أرواحُهُم كحوارب مُتسول، كبطاريةٍ خاويةٍ مِن الطّاقة، المُتوسّلونَ إلى اللهِ أنْ يَهبنا فَرَجاً قريباً يُحيي أرضَنا ويُداوي أجنحتَنا الّتي أكلَها الصّدأ والعثّ، نَحنُ الأمانُ الخائف، والخوفُ الّذي يُرعِبُ الأعداء. نَحنُ القلبُ الرّائف، أعداءُ الشّغفِ الزّائف، أصحابُ الوعدِ والعهد، القابلونَ بقضاءِ اللهِ وقدره. نَحنُ العطاءُ المَخذول، ونافذةُ الأفقِ المُغلقة، زهرٌ جاروا عليهِ بالذّبول. نَحنُ الحِبرُ الّذي تَحوّلَ إلى بحر، والأصابعُ الّتي تَحوّلَت إلى قوسِ قزح، والأحزانُ الّتي تَحوّلَت إلى عصافيرَ اختارَت الحُبَّ في كلّ شيء.

كسفينةٍ تَغرقُ في بَحرِ الأسى، أتحسّسُ ظُلمةَ اللّيلِ تارةً والطّريقَ تارةً أخرى، أجرُّ أقدامي المُثقلةَ بالخوفِ قبلَ بُزوغِ النّور لعلّي أتنهدُ الزّمنَ في طابورِ الخُبز. كانَ الفجرُ مُصفرّاً وحزيناً كالعادة، المصابيحُ مكسورةٌ كعيونٍ مَفقوءة، والجُثثُ مُمددةٌ على الأسفلت، والأسفلتُ مثقوبٌ بفعلِ القذائفِ العمياء.

■■■

وَصلتُ وضرباتُ قلبي عويلٌ صامت، وصوتُ مَن سَبَقوني صرخاتُ استغاثة، والكلابُ مِن حَولي تُطلقُ شهقاتِ الرّعب ولهاثَ الجُوع، فَرشتُ جسدي واقفاً، وأطفأتُ لساني وهيأتُ أذني لاستقبالِ رائحةِ مَن يقفُ أمامي، وبَدأتُ أستمعُ لثرثرةٍ تَسطو على أذني كالقيء. إنَّهُ الذّل في أبهى صوره، رحلةٌ إلى جهنّمَ دونَ ذَنْب، اعتقالٌ ذاكرةٍ رجيمة.

بعدَ ستّ ساعاتٍ مِن اللّامُبالاةِ بالمكان، واحتراقٍ للجرح الشّاسع الّذي شَهِدَ حالاتِ الخلافِ على ترتيبِ الطّابور، وإدمانِ سماعِ الشّتائمِ بأنواعِها، أضاءَ اليقينُ روحي، وأصبَحَتْ عيني صافيةً كعينِ العاشق، واصطفَّ النّبضُ تحتَ جلدي أكثرَ مِن مرّة. لقدْ حَصلتُ على الخُبز، بعدما فَقدتُ أسناني، وعُدتُ كسلسلةِ انفجاراتٍ وحزامٍ ناريٍ لأُطعمَ أطفالي، الّذين نَهشهُمُ الجوعُ منذُ يومين. كالغيومِ اللّامتناهية، وبمزيجٍ سوريالي مِن الموتِ والحياةِ رُحتُ أفكرُ في المرّة القادمة.

لم تأتِ هذهِ المرّة إلا بعدَ أشهرٍ مِن انقطاعِ المخابزِ عن العمل، فجأةً ودونَ أيِّ إرهاصاتٍ سابقةٍ علِمتُ مِن أحدِ جيرانِ النّزوحِ أنَّ المخبزَ الّذي سُرقَت محتوياته، بسببِ غيابِ الرّقابة، وقلّةِ حيلةِ النّاسِ وجوعِهم قَد عادَ للعملِ مِن جديدٍ هذا الصّباح. هرعَ النّاسُ وأنا معَهُم لعلّنا نستطيعُ أنْ نَحصلَ على بعضِ ترياقِ الحياة، رغمَ توافرِ القليلِ مِن الدّقيقِ في خَيامِنا، لكنَّ صعوبةَ توفيره، وندرةَ الحطبِ وغلاءَ ثمنهِ كانَ سبباً كافياً لتحمُّلِ ما يُمكن أنْ يحدثَ عندَ المخبزِ مِن التّزاحم.

وصلتُ والاغترابُ يملأُني بالدّمع، فكانَ أمامي المئاتُ مِن النّاسِ المُنكبينَ على الوطنِ طعناً بالخناجرِ والمخالِب، دخلتُ معهم في سباقِ الخيولِ المُروضة، تركلني أقدامُهم دونَ أنْ أتذمر.

خلالَ فترةِ الانتظار، الّتي تَحوّلتُ فيها إلى سحابةٍ تُحلّقُ فوقَ معاركِها وقتلاها، جاءَ اتصالٌ لأحدِ الواقفينَ معي مُباغِتاً كلصٍّ يَتحسسُ المَصابيح.

- ألو ، آه يا أحمد، خير ماذا هناك؟

- ماذا تقول؟ كيف؟ ولماذا؟ لا حول ولا قوة إلا باللّه، رحمه الله، وعوضنا عوض خير.

- لا لا، أنا في طابور الخبز، اذهب أنت وادفنه.

أغلقَ الرّجلُ هاتفَه، ذاهباً بأسئلتِنا الخجولةِ إلى ما وراءِ الأُفق، وقبلَ أنْ نسألَ جاءَ أحدُ معارفهِ ليرويَ لهُ حكايةَ قصفِ منزلِ أخيهِ وموتهِ وأنَّ مَن باغتهُ بالاتصالِ هوَ أخوهُ الثّالث. يا إلهي!! أيُّ حربٍ هذهِ الّتي أهدَتنا الكسلَ ووسائدَ الفُتورِ واللّامبالاة؟ وأيُّ اعتيادٍ على الموتِ هذا الّذي كلّسَ مشاعرَنا لنُفاضلَ بينَ الحُصولِ على لُقمةِ العيشِ ودفنِ أحبائنا؟

■■■

الآنَ فهمتُ جدولةَ الأعوامِ وكيفَ كانَ أجدادي يَشتعلونَ كقنبلةٍ يدويةٍ تُهددُ العالَمَ بالانفجار، الآنَ فهمتُ معنى الوقوفِ في المصاعدِ الخشبيةِ العريقة، الضّيقةِ كالتّوابيتِ للصُّعودِ إلى السّماءِ دونَ تَشرُّد، الآنَ فهمتُ قهرَهم الّذي لَم ينتهِ مُنذُ هِجرَتهم حتّى وافَتهم المنية، الآنَ اكتشفتُ معنى عبارة (إلى الأبد)، والتّوغلَ في الصّمتِ عندَ مُمارسةِ دورِ الأخرسِ في جزيرةٍ خاوية.

قبلَ أنْ أفهمَ كُنتُ أركضُ فوقَ الأيامِ والطُّرقات، تركبُني كلُّ وسائلِ المُواصلاتِ في الكوابيس. يُراودني سؤال: كيفَ لمشاعرَ مرّت عليها عقودٌ مِن الزّمنِ أنْ تعيشَ معنا دونَ أنْ تتلاشى؟ كيفَ كانَ يَبكي أجدادُنا على أمجادِهم البسيطةِ وحياتِهم البدائيةِ رغمَ أنَّهم استبدلوها هُم أو أبناؤهم بما هوَ أفضل منها؟ كيفَ يتحولُ النّعيمُ الجديدُ الّذي استبدلوهُ إلى جثّةٍ زرقاءَ في كوابيسهم لا يَتذوقونَ حلاوَتها؟

الآن، وبعدما جربتُ النّزوحَ والتّهجير، شعرتُ بقسوةِ المشاعرِ الّتي تتضخمُ كلَّ يومٍ وأنا بعيدٌ فيهِ عن بيتيَ البسيط.

نَحن مجانين غزّةَ المتيمون بها، الذين يميلون إلى كلّ ما يوصلنا إليها؛ غزّة المبطنة بحرير السلام

الآنَ فهمتُ جدولةَ الأعوامِ وكيفَ كانَ أجدادي يَشتعلونَ كقنبلةٍ يدويةٍ تُهددُ العالَمَ بالانفجار

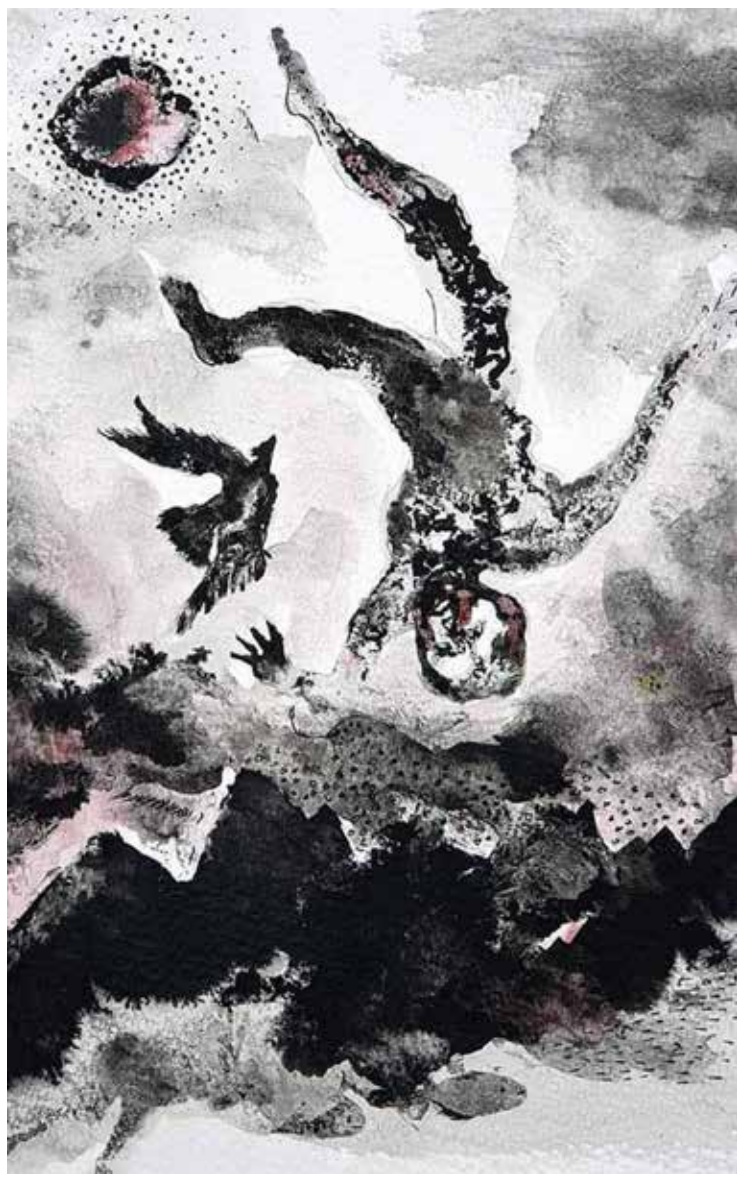

عمل للفنان الفلسطيني بشار الحروب

عليّ البدء برحلةٍ خامسةٍ للبحث عن المكان الآمن والطعام والماء لأُسرتي، علينا تأسيس خيمةٍ جديدة، ما زلتُ مشرّداً مع أُسرتي بفعل الحرب، ولم أُكمل علاجي بعد الإصابة، حتى اليوم مضت ثمانية أشهر منذ إندلاع الحرب في قطاع غزّة، أتذكّر المأساة، وفراق طفلتيّ، وأفراد من عائلتي، فضلاً عمّن غادروا البلاد هرباً من جحيم الحرب...

■■■

حقاً أنا أحببتُ حياتي بعد أن خسرتها، وأحببت أصدقائي الذين غادروا بحثاً عن النجاة أيضاً، وقلبي يعتصر ألماً على فراق أطفالي.

■■■

لا تصدقوا ذلك الكاتب الذي يجلس على الأريكة ليكتب مذكراته أو قصة مع من أحب من النساء، هذا ليس حقيقياً، لا يمكن أن تتعامل مع كل النساء الجميلات بمبدأ الحب وعن أي حب في زمن الحرب، الجميع يبحث عن النجاة الآن...
نعم الحب يكون صادقاً عندما نحب الحياة...
حقاً الكاتب قد يكون أكثر صدقاً عندما يجوب شوارع المدن الحزينه، قد يتحوّل إلى فيلسوف إذا نام على قارعة الطريق، ربما تُعذب الأقلام حاملها... الكاتب لديه جانب مخفي من حياة الحقيقة، غالباً أصحاب القلم خرجت أقلامهم من قلب مأساة.

في الحقيقة، النجاة من الحياة هي الأقرب إلى النجاة من الموت رغم التناقض الكبير بينهما

الحقيقة تخرج عادةً في النهايات، الجميع يصمت عن قولها في البدايات حتى لو كانت إعلان حب

شعرتُ كيفَ أموتُ مرّاتٍ عدةً مع كلِّ دخولٍ للضّوءِ الشّتائي الخَجول إلى الخيمة، شعرتُ بدخولي إلى مشرحةِ اللّامُبالاةِ في حانةِ الحاضرِ مع كلِّ تسولٍ على أبوابِ المجاعة. لقد كانوا على حقٍّ ولا يزالون، حينَ ورَّثونا الحُزن، وصلَبونا على عقاربِ السّاعةِ كلّما سَكَبَت غزّةُ مياهَ بحرِها المالحِ في حناجرنا، عبثاً تُعلّمُنا مدرسةُ النّزوحِ أنَّ الصّبرَ مِفتاحُ الفَرَج، وأنَّ القادمَ أجملُ مِن الماضي، عبثاً نُداوي الخيباتِ المَطعونةَ بالخذلان، فلقد ارتكبنا خيانةَ حُبِّ الوطنِ وادّعينا أننا قادرونَ على إنجابِ البُكاء.

أيا محمدُ خُذنا إلى الغار...
أيا عيسى خُذنا إلى السّماء...
أيا يونسُ خُذنا إلى بطنِ الحوت...
أيا موسى شُقَّ بنا البَحر... خُذنا إلى سيناء...
أيا مريمُ البتولُ خُذينا إلى زكريا... خُذينا إلى نخلةِ المَخاض...

■■■

خُذونا جميعاً حيثُ الدّينُ بلا ردّة، حيثُ هويةُ الرّسلِ الحقيقية، خُذونا حيثُ لا سماسرةَ للدّين، ولا ذُبابَ للإنسانية، خُذونا لنميزَ الخبيثَ مِن الطّيب، حيثُ لا طوابيرَ للحصولِ على الطّعام، حيثُ لا مفاوضاتَ على الموت، ولا مساومةَ على الحياة. حيثُ لا خطوطَ للحُزن، ولا بزاتٍ واقيةً مِن الرّصاص، ولا وجعَ متناثراً للأُمهات...
أيا بلادَ الفسقِ خُذينا إلى الحرية...
أيا بلادَ الطُّهرِ المُقدسِ خُذينا إلى اللّاعودة...
خُذينا جميعاً حيثُ الحبيباتُ اللّاتي ينتظرنَ العُشاقَ تحتَ الجُدران، حيثُ الأفلامُ الممنوعةُ مِن العَرض، حيثُ حاناتُ النّبيذِ الرّخيصة، حيثُ الرّاقصاتُ المُعتمرات، ومعاهدُ تعليمِ الرّقصِ للذّكور، حيثُ لا وطنَ نَدفعُ ثَمَنَ البَقاءِ بهِ مِن أوجاعِنا، ولا سماسرةُ الوطنيةِ يُتاجرونَ بدمائنا.
ثَمَّةَ محطاتٌ للقطارِ خرساء، وثَمَّةَ أبوابٌ لا ثُقوبَ لها، خلفَها يُضاجعُ ثوارُ الوطنِ باسمِ البُندقية، وبيادرُ تُوزعُ الجوعَ على الأطفالِ بلا هوادةٍ باسمِ الصّمودِ المرهونِ بالخلاصِ الأخير.
ثَمَّةَ ابتساماتٌ مغدورة؛ ابتسامةُ الرّجلِ المُغبرِ بالدّقيق، ابتسامةُ الطّفلِ الفائزِ بوجبةٍ رديئة. وثَمَّة بكاءاتٌ مُؤجلَة؛ بكاءُ العجوزِ الّذي يَلعنُ الأجيال، بكاءُ الثّكالى اللّاتي لا يَجِدنَ الماءَ للاغتسال.

■■■

الخوفُ خُلِقَ هُنا...
الموتُ خدعةُ النّجاةِ هُنا...

سائد حامد أبو عيطة كاتب

بقايا إنسان

في الحرب لا فرق بين الموت والحياة سوى أنّ هناك أُناساً قد نجوا من الموت، وهناك آخرون يحاولون النجاة من الحياة المأساوية. أن تكون قد نجوت من مجزرة وبينك وبين الموت مسافة صفرية لتخرج إلى حياة الحرب مجدداً، ستتحول إلى بقايا إنسان. في الحقيقة، النجاة من الحياة هي الأقرب إلى النجاة من الموت رغم التناقض الكبير بينهما.
لقد مضت ستة أشهر على نجاتي من مجزرةٍ مروّعة أصبت فيها وفقدت جزءاً من عائلتي، كنت أبحثُ خلالها عن بقايا إنسان في شوارع المدن الحزينة، بحثتُ وسط دمار المنازل وفي الطرقات، سألتُ أكوام الحجارة عن بقايا إنسان، وسألت الهواء عن الذين فقدتهم ولم أجد الإجابات، لقد سألتُ نفسي وسألت الله كثيراً حتى علمت بأنّ هناك إجاباتٍ مؤجلة علينا أن ننتظر الحصول عليها، وربما لن نحصل عليها أبداً، كان عليّ أن أصمت لفترة أطول للحصول على بعض الإجابات.
مضى على الحرب نصف عام حين سرتُ مسرعاً، في أحد أيامها، أحملُ حقيبتي بيدي مرتدياً معطفي الأسود الطويل وحذائي البنيّ، كان يوماً جميلاً من أيام الشتاء، لديّ موعد مهم كنت أنتظره... أخيراً التقيتُ مع بقايا إنسان.

■■■

في المقهى الحزين جلسنا معاً، أحضر الجرسون قهوتنا، عينها كانت تلمع، طاولة المقهى بيننا وحصلتُ على نصف سيجارتها، ابتلعت ما تبقّى من الريق، كنت أتمنى لو لم تنته سيجارتها، لقد تبادلنا الأحاديث وتشاركنا السيجارة باهظة الثمن، لقد اختلط الحزن بالفرح وبدأنا نبحث معاً عن بقايا إنسان.
الجميع فقد جزءاً كبيراً من آدميته، حياة الحرب قاسيةٌ جداً ولكننا قد لمسنا أجزاءً من كائناتٍ بشرية، وجلسنا على طاولة المقهى البائس، الجميع في المقهى تحدثوا عن مأساة أصابتهم، روّاد مقهى الحرب لم يجتمعوا مصادفةً لسماع الموسيقى أو من أجل أحاديث الثقافة، العشاق جاؤوا من أجل لملمة ما تبقى من إنسانيتهم، والمواعيد غالباً ما تحكمها الصدفة، لم تكن في المقهى رواية رومانسية يناقشها المثقفون، ولم تكن ورود حمراء أو شعر وشعراء، فقط كان أُناس قد نجوا من الموت، ويأملون النجاة من الحياة.

■■■

لم ألتق بأصدقائي منذ أشهر ولم يكن لدي عنوان سوى الشارع، حتى اخترتُ المقهى الحزين عنواناً لي، جلسنا وتحدثنا ثم غادرنا. لقد رحلتُ من المقهى الآن، تاركاً خلفي ذكرى وبقايا إنسان... ثم رحلنا جميعاً من المدينة الحزينة. يا إلهي، جاء موعد الحرب من جديد، وغادر الروّاد المقهى وشوارع المدينة التي أصبحت خاوية وحزينة. لقد افترقنا منذ شهرٍ تقريباً، وأصبحت وحيداً، كنتُ قلقاً لأنيّ متأكد من أن الحرب لن تتوقف، وستعود نارها لتشتعل كما اشتعلت سيجارتنا في المقهى، ضجيج الدبابات مخيف وأصوات القذائف مرعب، حتى صوت الهواء وحركة الأشجار باتت مخيفة.
وداعاً يا جميلتي. لقد تركتُ الذكرى خلفنا، ونسيت الموعد الجديد بيننا، لقد نسيتُ أنكِ خرجتِ من البلاد وأن الموعد الجديد لم نحدده بعد، المقهى الآن فارغ، الجيش طلب من سكان المدينة الإخلاء الفوري، وتحوّلت المدينة إلى مدينة أشباح، لقد نزحتُ للمرة الخامسة، الظروف قاسية وبالكاد أستطيع تذكر المواعيد والأسماء والأرقام، علينا أن نخرج بسرعة قبل وصول الدبابات.

■■■

في الحقيقه كنت أود أن أُكمل نصاً جميلاً، أحياناً قد تُصبح الكلمات سيفاً مسلطاً على رقبة صاحبها.
ذات يوم سأقول الحقيقة وأدفع ثمنها عندما أكون مستعداً، الحقيقة تخرج عادةً في النهايات، الجميع يصمت عن قولها في البدايات حتى لو كانت إعلان حب...

■■■

لقد أخطأ أولئك الذين اختزلوا الحب في امرأة جميلة يلاحقها أخرق ظناً منه أن الحب يتعلق بالنساء فقط، حقاً يجب أن نحب الحياة وفقط الحياة، فالحياة أحب إلينا جميعاً من الجميلات، وحين نحبها سنجد الجميلات حولنا بأشكال مختلفة. هذا لا يمنع أن تحب امرأة قد تكون نصفك الآخر أو زوجتك وأمك وغيرها من النساء، الحب ليس عيباً وليس نقصاً، يقول المتدينون في أي دينٍ يؤمنون به، إنهم يحبون «الله» والعكس، هذا يكفي للاقتناع بأن الحب شامل ويبدأ من حب الإنسان لنفسه ليتسع إلى حب الحياة الأعم والأشمل. ربما يبدو غريباً أن أختار في نصوصي المكتوبة حبّ الحياة من زوايا مختلفة، حقاً رؤيتك للموت سوف تجعلك محباً للحياة رغم الألم، أنت سترى التناقض الحقيقي في مكونات الكون وسترى حجم التناقض في داخل الإنسان نفسه، ستحاول البحث عن بقايا إنسان. ربما تتأخر كلماتي قليلاً فأنا مشرد بفعل الحرب، حقاً الحياة أصبحت بائسة وقد اكتشفت مؤخراً أن الحياة القاسية تصنع الكارهين للحب، إنه لأمر محزن، إنه التناقض، البحث عن النجاة باستمرار أمر متعب للعقل والجسد والقلب.

■■■

للأسف عقلي مشوش وكلماتي بالكاد أستطيع جمعها، العقل والجسد منهكان للغاية وقلبي مهشّم. منذ قليل، حصلت على هاتفي بعد إتمام شحن البطارية، عليّ أن أمضي إلى المكان الجديد لنصب خيمتي في نزوحي الخامس من مدينة رفح، جنوب قطاع غزة، إلى دير البلح، وسط القطاع، وقبلها من شمالي القطاع إلى جنوبيه، وهكذا عدنا للوسط وتحديداً بالقرب من ساحل قطاع غزّة.